سلامة الرؤية ومرحلة التحول في أدب محمد عبد الحليم عبد الله

«الفكرة العظيمة لا تأتي إلا نتاجا لإحساس عظيم، يسبقه إرهاص عظيم، يهيىء النفس لهبوط الفكرة» (١). ونحن نستطيع أن نؤكد أن بطل «الباحث عن الحقيقة» ليس هو البطل الذي يصنعه خيال المؤلف، ولا الذي يتمناه ويتصوره القارئ، فلا إضافة للشخصية تميل بها إلى البطولة الإغريقية بحديها المعروفين، ولا انتقاص من ملامح الشخصية يتجه بها إلى وجهة لا تتفق ومحدداتها. ولنتأمل معا هذا النص (٢).

الأب: الروح يا بني هي الشيء الأبقى والأخلد.. إنها ما يجب أن نضحي من أجله..

الابن: ولكنهم ما داموا قد اختاروا هذا الأسلوب فلا بأس.. إنني لن أخرج للبحث عن جثة أعرف أن مآلها التفكك والفناء، ولكنني سوف أجازف للبحث عما وراء الجثة.. أريد أن أقول لهم.. أصرخ في وجوههم أنني أرفض الوثنية.. أحتقر عبادة الأجداث.. وإذا كان بمقدورهم أن يخرجوا بالناس في ظلال التهديد والإرهاب كي يمارسوا الطقوس الوثنية فإنني سأخرج متحديا للبحث عن معنى الشهادة في جثمان أخي المحفور بالرصاص.. وفي رفض البلاغ الوثني المقيت أن الشهادة هي نقيض الوثنية يا أبي.. وشتان!!

وعلى نفس النمط نجد «سلمان الفارسي»، ولنتأمل رده على أبيه:

– مررت على رعاة الخنازير كما أمرت.

– وماذا وجدت هناك؟

– وجدت شيئاً لم تعرفه «يا سيدي»

كأنه لم يسمع ماقاله ابنه، وعاد يسأل:

– ثم ماذا؟

– وجدت الله في كل مكان سرت فيه.

جلجلت ضحكة الأب الفظ حتى جفلت «بوران» من صخبها ثم سأل الأب:

– ووجدته عند رعاة الخنازير؟

– نعم، إنه رب المساكين، وجدته على صورة جديدة على صورة الحق، ليس في النار التي حرمتم على الشمس أن تراها، وليس في الشمس التي غلبتها النار على سلطانها في المعابد (٣).

وقد أخذ الدكتور يوسف حسن نوفل (٤) على كاتبنا «أن الحوار في قصصه أعلى من مستوى الشخصية، وبالذات في رواية لقيطة» وهل ينطبق هذا الرأي على رواية الباحث عن الحقيقة؟

إننا نرى منهجا جديدا يستخدم لأول مرة عند تقديم البطل في «القصة التاريخية والذي يعتمد بصفة نهائية على المنهج، ويرى لحظة الهبوط، ويرى أيضا لحظة الارتفاع، ولا يسلط الضوء على لحظة الهبوط. والبطولة في «الباحث عن الحقيقة» ذات أجنحة ترتفع بأصحابها إلى السماء، ولا تشدهم – كسلاسل الميناء إلى الأرض (٥) إنها تبدأ «بالتأمل» أو «النظر» وقد بدأ «سلمان» بالنظر والتأمل.. ويصف المؤلف حركته قائلا: «حركة الشك التي تبحث عن اليقين في تحسس ودبيب (٦) وليس الشك «المعمول به» في نطاق ما يسمى بالتحرر العقلي، ومحاولة الانقلاب على كل ماهو غيب بعيد عن الملموس الملاصق، إذن هي حركة في الاتجاه الصحيح، حركة تعلن عن نفسها في وضوح. «القوة التي حلت وثاق قلبه غير عاجزة عن حل وثاق رجله» إذن هو البطل المحدد الملامح النفسية التي يمكن أن تقوده إلى ما يحلم به. ويصف المؤلف خطوات البطل قائلا: «ومشى.. كانت خطواته منذ هذه اللحظة أشبه بحركة المأخوذين.. يوم نشعر بأن إرادتنا متصلة بما هو أسمى من العصب المادي فكأنها صورة من شعاع عكسته مرآة (٧)..

بقلم: زغلول عبد الحليم عبد الله

ويقول الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله «ولا يكثر السؤال عن الغايات إلا حين يسود القلق، فالإيمان يتنافى مع كثرة التساؤلات (٨)..

إذن فقضية الإيمان لها مدخل أساسي، هو التأمل أو النظر الذي وصفه المؤلف بأنه حركة الشك التي تبحث عن اليقين.

وفي رحلة الشاب الفارسي إلى الجزيرة العربية تأكد لديه أن النصارى اختلفوا في أمر دينهم، وعادوا مفتونين فيه، وهناك أناس عادوا إلى الأوثان، لأن الأحبار والرهبان أغلقوا أبوابهم وأفواههم على الحقائق، وتركوا الناس يموجون.. وتأكد لديه كذلك، أن كل الذين «شكوا» أو «رفضوا» أو «عددوا» لم

يهتدوا .. إذن «فالبطل» صنعة التأمل والنظر..

يقول ابن خلدون في مقدمته: «ثم انصرف العرب عن ذلك - أي عن الشعر - أول الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا، ثم استقر ذلك واندس الرشد في الملة، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره، وسمعه النبي ﷺ وأثاب عليه فرجعوا حينئذ إلى «ديدنهم منه» (٩)، ويوضح لنا هذا النص أن الشعر «الأدب على إطلاقه» له صلة قوية بالإيمان، على عكس ما تفرضه المقولات الجزئية والنظرة القاصرة والرؤى المحدودة، لذلك قال بطلنا لصديقه: «ليكن غناؤك عبادة لا شهوة» (١٠).

إن المشكلة الجذرية الاولى في حياة البشرية هي قضية العبادة أو قضية المعبود.

ولقد استطاع الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله أن يدرك - ببصيرته النافذة - عمق المشكلة التي يطرحها أصحاب الرؤى المحدودة وينتصرون لها.. على اعتبار أن قضية العبادة أو المعبود لابد أن تواجه بمنتهى الحزم من جانب أصحاب الرؤى المحدودة على اعتبار أنهم أصحاب مصلحة في إزاحة العقيدة من النفوس «العامل الحاكم» .. وقد تبين معنى «الجندية لله» من حرب رمضان المجيدة التي انتصر فيها الجندي المسلم، وليس فقط الجندية لله، فكل ما في السماء والأرض لله، وليس لبشر أن يشارك الله في ملكوته مهما كان هذا البشر، من هنا كان منطق «الفارسي» وهو يحمل آماله وأشواقه في طريقه إلى شبه الجزيرة العربية.. «من أرض كسرى إلى أرض قيصر وهي في الحقيقة أرض الله» (١١) وقد سيطر من قبل مفهوم «مالقيصر لقيصر وما لله لله» على الأستاذ محمد عبدالحليم عبد الله، بيد أن الانقلاب على الرؤى المحدودة قد أسقط المفاهيم الجزئية.

يقول المؤلف على لسان سلمان الفارسي: «آه يا رب، رأيت كثيراً من عبادك على رقعة فسيحة من الأرض، قليل منهم يعرف الطريق إليك، وكثير منهم عاش يدور في حلقة مركزها نفسه ومحيطها شهواته.. إن نورك الذي يغطي السهل والجبل غير بعيد عن بطون الكهوف ونفوس المخطئين.. وها أنا ذا أحس يا ربي أنك تختص بعظيم أسرارك كل الذين يبحثون عنها، كأنك تسعى إلى من سعى إليك، وتنسى من ينساك، ها أنا ذا في طريقي إليك مرة رابعة، ركبت ومشيت، وجعت وعطشت، وبت في العراء، وليس هذا مَنّاً عليك يا إلهي، ولكنه صلاة في قدس محرابك، فاقبل صلاتي واهد خطواتي (١٢).

إذن فأصحاب الرؤى المحدودة لا يحفلون ألبتة بمثل هذا الشعور والإحساس .. إنهم يحسبونه من قبيل عدم اكتمال «النمو النفسي» كما يدعي علماء النفس على الجملة، فالطريق إلى التجرد وعر، وقمة النمو النفسي أن يجد الإنسان نفسه - وهو في طريقه إلى حظيرة الإيمان - قد صنعه منهج لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولقد صنع المنهجُ الخليفة الراشد أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، وصنع عمر وعثمانَ وعليًا رضي الله عنهم وأرضاهم جميعاً، وغيرهم من أصحاب الرسول ﷺ «رجال صنعهم المنهج» لا رجال من ورق صنعهم فكر مزيَّف ونماذج شاذة يظن بها - في حالة تقليدها - أن تعمل في جد وإخلاص، لتستعمر أرض الله حسب منهجه الذي لا يعبد إلا به.

محمد عبد الحليم عبد الله

ومن هنا كانت رحلة الباحث عن الحقيقة، رحلة بحث عن منهج - بعد نظر وتأمل لا تدركه إلا الفطرة السوية - من خلال يقين ثابت أن قضية المعبود «العبادة» تشكل أخطر قضية تواجه عقل الإنسان الذي كرمه الله بالقدرة على النظر والتأمل والبحث، وحتى يستطيع أن يصل إلى الأهداف المقرر له أن يصل إليها.. ومن باب النظر والتأمل حتى الوصول إلى الأهداف رحلة شاقة خاضها «سلمان الفارسي»، وصولا إلى صاحب الدعوة النبي محمد ﷺ .. فقد ترك المال والأهل والجاه «كل مباهج الحياة»، وإعمالا للتأمل والنظر سافر والتقى في طريق سفره بمن استطاع أن يقول له: الطريق من هنا.. فقد سمعها «سلمان الفارسي» من عابد عمورية، وكانت كلمات عابد عمورية بمثابة اليد التي مدت «لسلمان الفارسي» فأجابت على ما تبقى من أسئلة تبحث عن إجابة، أو قل إن شئت - من تأملات تحاول أن تستقر باليقين الثابت في نفس صاحبها، وكانت الدفعة التي دفعها عابد عمورية «لسلمان الفارسي» قد أوصلته - في حقيقة الأمر - إلى بداية

لا يكثر السؤال عن الغايات إلا حين يسود القلق، فالإيمان يتنافى مع كثرة التساؤلات

محمد عبد الحليم عبد الله

الطريق، لقد كانت دفعة إيمانية قوية.

وترك «سلمان» عابد عمورية بعد أن قال له عن النبي ﷺ: «لقد لقيته فعلا بإيماني، وآمنت بظهوره، وعبدت الله الذي سيدعو إليه، لكن بقية أيامي وقواي لن تمهلني حتى ألقاه.. «أما أنت يا فارسي – إن كنت موقنا أني أسديت إليك شيئاً – فاذكرني عندما تتملى عينك طلعة أكمل إنسان يحلم برؤيتها طائفة من البشر، قبل ظهوره. وسيحلم برؤيتها طائفة أعظم، تراه في كل حق (١٣).

وكانت رحلة الفارسي إلى الجزيرة العربية شاقة، ولكنه «لا يرى تناقضا في أن يخدم عبداً ويعبد إلهاً» (١٤) فباعته قافلة إلى أخرى، ثم إلى يهودي لين العريكة، تمكن من الإقامة عنده إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا» وقال اليهودي لسلمان بعد أخذ المال «ليس يعنيني الآن منك الزارع ولا المحارب.. انصرف فأنت حر» (١٥).. ودخل سلمان الفارسي «المدائن» والتف الناس حوله ليسمعوا سحر بيانه: «ليس غاية المسلمين ما في أيديكم، بل غاية المسلمين ما في قلوبكم» (١٦).

لقد استطاع الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله أن يقول كلمة واضحة مميزة، وهو يقدم لقارئه أنموذجاً لكتابة الرواية التاريخية، وقد سبقه إلى هذا المجال الأستاذ عبد الحميد جودة السحار فكتب – أجزل الله مثوبته – «أهل بيت النبي» ﷺ، ورائعته «محمد رسول الله والذين معه» ولا يفوتني أن أذكر كذلك الملحمة الإسلامية الكبرى «عمر» للشاعر الأستاذ علي أحمد باكثير يرحمه الله رحمة واسعة، ونحن نؤكد أن الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله لا يمتاز عن غيره ممن ذكرنا في تناول التاريخ إلا بالقدر الذي يستشعره قارىء محمد عبد الحليم عبد الله نفسه، إلا أن ثلاثتهم قد تفوقوا على غيرهم من الذين تناولوا التاريخ من ناحية «قوة الحياة» التي استطاع كل واحد منهم أن ينطق بها «بطله»، ولا يتأتى هذا إلا من خلال رؤية عقدية قد امتاز ثلاثتهم بها، وذلك كنتيجة طبيعية للتربية في السنوات الباكرة، وتأثير المفهوم القرآني تأثيراً مباشرا على العقل والقلب معا، مما دفع بعض النقاد بأن يعيب على الأستاذ عبد الحميد جودة السحار كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية في قصصه.. والحقيقة عكس ما تصور هؤلاء .. لقد اشترك الأساتذة السحار ومحمد عبد الحليم وباكثير في كثير من الصفات، إنهم يشعرونك بالحياة تدب في كل سطر يكتبونه، رغم ما يصفه البعض بأن ظاهرة الإلحاح في الوصف عيب بارز في أدب محمد عبد الحليم عبدالله! ويقول بعضهم أيضا : إنه قد تخلص من ظاهرة الإلحاح في الوصف فنجا أدبه من مهالك كثيرة!! ولنتأمل معاً قول الأستاذ «علي أحمد باكثير في روايته» التوراة الضائعة:

في رواية «الباحث عن الحقيقة» يستكمل محمد عبد الحليم عبد الله مسيرة باكثير والسحار في النظر إلى التاريخ برؤية إسلامية صحيحة

حيم: موسى في التوراة التي بين أيديكم هو الذي أمر قومه بسرقة حلي النساء المصريات ليلة الخروج.

جوزيف: أنت الذي سميته سرقة، ليس سرقة.

حيم: لأنها أخذت من غير اليهود؟

جوزيف: لأنها لو كانت سرقة لما أمر بها موسى!

حيم: ولم لا تقول: إن موسى الحقيقي لم يأمر بذلك؟

جوزيف: قد كفرت الآن بموسى.

حيم: خير لي أن أكفر بموسى من أن أكفر بالله!

جوزيف: إذا كفرت بموسى فقد كفرت بالله.

حيم: بل إذا آمنت بموساكم هذا فقد كفرت بالله(١٧).

ويتمتع الأستاذ «محمد عبد الحليم عبد الله» بقدرة فائقة على الاختزان، مما يجعله مميزاً عن الآخرين في الاستفادة من محصول الثقافة العربية التي وصفها البعض بأنها سبب من أسباب صعوبة وارتفاع لغة الحوار عن مستوى الشخصيات، وقد أكد بعض النقاد أن الشخصية في رواية الباحث عن الحقيقة كتبت على أثر رحيل والد الكاتب، أو كنتيجة للهزة النفسية التي تعرض لها الرجل، ونحن نؤكد أن رحيل والد الكاتب قد يكون سببا في هزة نفسية تقتلع ما تبقى من حب الدنيا إلى جانب هزات أخرى تعرض لها كاتبنا طوال حياته الأدبية.

وللطفولة في حياة محمد عبد الحليم عبد الله أثر بالغ، فطفولته مليئة بالعجائب، ولقد استفاد منها استفادة منقطعة النظير، فالمنجم عنده زاخر مليء، لؤلؤ كثير، وأصداف قليلة، ولا ينكر إلا مكابر مدى تأثر الإنسان بمختلف الحوادث، الماضي البعيد منها والقريب، ولا يستطيع أن ينفصل الإنسان عن تجاربه الماضية، فهي جزء لا يتجزأ منه، رغم القول الشائع بأن التجربة الشخصية لا يجب أن تلح على ذهن الكاتب، وإلا فهو تقليدي أو كلاسيكي أو تراثي!! وقد نسي البعض أن التجربة الشخصية – بحلوها ومرها – تنير الطريق،

وهل كان ماضي «سلمان الفارسي» مقطوعاً عنه؟!

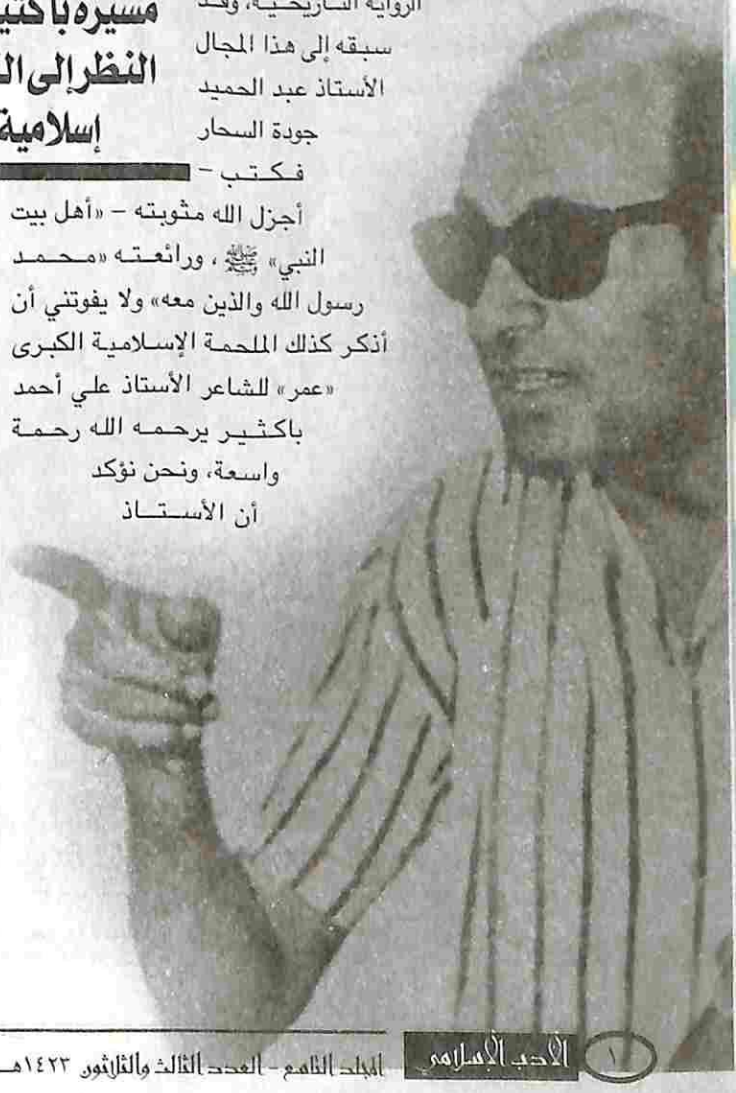

ماذا قال سلمان يوم موت عابد عمورية؟ وماذا قال عن إخوته قبل أن يشملهم دين الإسلام؟ وماذا قال عن الراعي الذي جلده والده؟ لقد ملأ قلبه شوقاً لقريته «جَيّ» واليوم وقت ولاه «ابن الخطاب» رضي الله عنه وأرضاه على «المدائن» فلا يجد في نفسه حرجاً أن يكف عن زيارته لإخوته وهم على وثنيتهم ولم يدخل دارهم إلا بعد أن دخلها الإسلام.

إن محمد عبد الحليم عبد الله لا يضفي البطولة على لحظة الضعف البشري وإنه لا ينكر حالات الهبوط، ومع ذلك لا يمجدها ولا يسلط عليها الأضواء، لأنها في حقيقتها لحظات هبوط.

إنه لا يرسم صورة مزورة للبشرية، صورة بيضاء خالية من كل سوء، نقية من كل شائبة، إنه يصور الإنسان على وضعه الطبيعي الحقيقي. إنه يصور «نقائض» الإنسان تصويراً صادقاً عميقاً واقعياً، إلى أبعد حدود الواقعية، ولكنها ليست الواقعية المزرية التي تضفي صفة البطولة على لحظة الضعف البشري - المزرية جداً - في بعض الأحيان، والتي نراها بوضوح في معظم الأعمال الأدبية الغربية بواقعيتها المنحرفة، التي تلتقط لحظة الهبوط على أنها لحظة تستحق الإعجاب والتقدير، لم يكن محمد عبد الحليم عبد الله طبعة عربية أنيقة من المفاهيم الغربية في الأدب والحياة. لم تعصف به النزعات الأدبية المختلفة، رغم أنها اقتلعت الكثير من أبناء جيله من جذورهم، وأفقدتهم الهوية، فضاعت شخصياتهم، وصاروا ألواناً باهتة أو طبعات غير أنيقة من المذاهب التي ينقلون عنها بوعي أو بغير وعي.

إن مهمة الجيل الجديد في عالم الأدب هي اكتساب الخبرة الفنية من كل مكان في العالم بمهارة ذكية، شريطة أن يعودوا إلى أنفسهم فيبدعوا فنا يعبر عن ذاتيتهم الأصيلة.

ويرى الباحث في أدب محمد عبد الحليم عبد الله، أن سلامة الرؤية - إذا صح هذا التعبير من ناحية استخدامه كمصطلح - تتحقق بدرجة ما في معظم أعماله، حيث نجد أن معظم أبطاله واقعيون، ومرتبطون بواقعهم، رغم القهر والانتكاس في بعض الأحوال - ولكنهم مع ذلك يتصرفون بشكل مثالي، ليسوا غرقى في بحور الوهم والخيال، وليسوا صرعى أو أنصاف عقلاء أو مخدرين.. لا .. إنهم واقعيون يتصرفون بطريقة مثالية خالية من الإسفاف والتنطع، يعرفون لحظة الارتفاع «المثال»، كما يعرفون لحظة الهبوط «التدني والسفول» وانظر إلى قوله:

«ورأيت بعد برهة مفاتيح الكنوز في يميني.. لم يستعص علي باب. لا.. ولم يزجرني حارس. وكانت عيناها تمنحاني وتدفعاني إلى الأمام، وتسقياني خمرا أستعين بها على المخاوف حتى لا أنكص.. ولكن.. آه!!.. لا تدع خيالك يجمح بك فقد كنت نصف كريم (١٨)».

يشكل الإعجاب بشخصية سلمان الفارسي منحى روحيا مميزا في حياة محمد عبد الحليم عبد الله وأدبه، وكانت وفاة والده وأحداث أخرى قد اقتلعت ما تبقى من حب الدنيا في نفسه

وصف لمشهد جنسي! هل أثار المؤلف فيك الغريزة؟ إنهم يحسبونها عليه! يقول المترفون: إنه أدب غير واقعي!! لأنه فقد الحياء. وماهو الأدب الواقعي؟

الواقعية! مصطلح أسيء استخدامه، إذ يقول بعض النقاد: لحظة الهبوط واقعية، ولحظة التسامي غير واقعية!

استمرار وصف لحظة الهبوط لتحتل أكثر صفحات العمل الأدبي هو قمة الواقعية، وعلى العكس نجد أن مجرد الارتفاع عن الهبوط انتكاس للواقعية.

الوحل «واقعية»! التسامي «مثالية»! انشطارية مرذولة!

ما هذا؟! فساد الرؤية! فساد الصورة!

لا يرسم محمد عبد الحليم عبد الله صورة مزورة للبشرية، بل صورة واقعية، صورة تشمل الإنسان كله في جميع حالاته. صورة لا تسلط النور على الشر وتجعل منه فضيلة، ولا تسلط النور على الضعف وتجعل منه بطولة. لا تأخذ واقع «جيل معين»، مليء بالشذوذ والانحراف، جيل طحنته الصراعات الاقتصادية والاجتماعية فأيأسته من نفسه. وحولته عن الإيمان بما يشتمل عليه من عناصر الرفعة، ومرغته في الوحل، وأخضعته لكل ضرورة مذلة.. ثم نقول إن هذا واقع البشرية.. كلا إنه واقع جيل معين من أجيال البشرية، إنها واقعية ترسم الإنسان بأمانة كاملة، بكل ما فيه من نقائض وضعف وخسة وهبوط .. ولكنه على هذا الشرط: على أنها نقائض وخسة وهبوط لا على أنها الأمر الواقع الذي لا مفر منه، إن الأمانة الأدبية تفرض هذا الموقف.

تفرض هذا الموقف إزاء هذا «الجيل المنحرف» وكل جيل، إنها تصور واقعه مقيسا إلى ما ينبغي أن يكون عليه البشر في حياتهم السوية.

قد يتصور البعض أن عملية قياس «الواقع المصور» إلى «الواقع المثال» يستلزم بالضرورة أن تنتصر «الفضيلة» في كل صراع أو ينتصر الخير

في أية صورة من الصور.
كلا. فما هكذا يصور محمد عبد الحليم عبد الله الواقع.
فقد ينهزم الخير مرات كثيرة، ولكن تظل القلوب معلقة بوعد الانتصار، إيماناً منها بسنة الله التي لا تتبدل. إن الواقعية الصادقة ينبغي أن تعالج الأمر على حقيقته، فهي ليست مأذونة أن تخدع الناس عن الواقع، أو تتخيله كما يتراءى لها، وتصوره على هواها. نعم، توجد «واقعية» في حياة البشر، إنهم كثيراً ما ينحرفون عن طبيعتهم السوية، فيضخمون جانبا من جوانب وجودهم على حساب بقية العناصر المكونة لهذا الوجود. يضخمون مثلا جانب الجنس، حتى يبدو كأنه هدف في ذاته، وكأنه الشغل الشاغل والهم المقعد المقيم. نعم هذه حقيقة ولكنها «حقيقة منحرفة» والواقعية الصادقة ينبغي أن تصورها. وتصورها على حقيقتها على أنها انحراف.

سلامة الرؤية تتحقق بشكل واقعي في معظم أعمال محمد عبد الحليم عبد الله، فهو لا يضفي صفة البطولة على لحظات الضعف البشري ولا يتوقف طويلا عندها، وإنما يذكرها ثم يتجاوزها

إن الله هو خالق الفطرة، بكل ما تشتمل عليه من ميول ودوافع وطاقات، وقد خلقها الله لحكمة وغاية لتؤدي دورها المرسوم في بنية الكون ونظامه لا لتكبت ويقطع عليها الطريق، ولكن الله في الوقت ذاته يطلب من هذه الفطرة أن ترتفع وتتهذب، فلا يمكن قبول فكرة «إن الجنس عملية بيولوجية خالصة» فتلك واقعية منحرفة، ولكن الجنس وما يرف حوله من مشاعر وأفكار داخل نطاق قاعدة واحدة تشمل كل شؤون الحياة: فالجنس بجميع أحواله ومستوياته – حقيقة عميقة في حياة البشر بل في كل كيان الحياة.
قلت: إن سلامة الرؤية تتحقق بشكل متوازن في معظم أعمال محمد عبد الحليم عبد الله، فهو لا يضفي صفة البطولة على لحظة الضعف البشري ولكنه يذكرها. وهنا سر قوته.
وتبلغ سلامة الرؤية حدا لا مثيل له، فانظر إلى قوله معلقا على هتاف ابن نوح ﷺ الذي أراد الله له الهلاك.. فغرق من فقدوا العقيدة مع أنواع من الحيوان دثرها الطوفان، لأن الله لم يرد «لعيِّنة» منها بقاء.. فهلك مع الهالكين (١٩).
إن رواية «الباحث عن الحقيقة» قد أجابت على أسئلة كثيرة جدا لمعظم نقاد محمد عبد الحليم عبد الله خاصة «ج. مونو» و«يوسف الشاروني» حول معنى الحياة والمرأة والدين والمجتمع. قال عنه ج. مونو: «إنه يرسم بريشته. إنه يحب الصور الواقعية.. إلا أن الرسم الذي أبدعه بريشته تدب فيه الحياة، فيتحرك ويصبح شخصية روائية» (٢٠) وهذا الكلام نشره ج. مونو عام ١٩٦٥م ولا نعلم متى كتبه. أي قبل صدور رواية «الباحث عن الحقيقة» الذي كتب يوسف الشاروني عنها قائلا «كانت العلاقات العاطفية هي موضوعه الروائي المحبب، وكانت الاهتمامات الأخرى أقل، حتى تطور في روايته «الباحث عن الحقيقة» إلى حب الحقيقة، فقد تناولت قصة سلمان الفارسي في رحلته الروحية من الوثنية إلى الإسلام، ورحلته المكانية من فارس إلى مكة» (٢١).
ولقد فات يوسف الشاروني أن «رواية الباحث عن الحقيقة» هي في الحقيقة نتاج مختلف تمام الاختلاف عما سبقه من أعمال، فقد اتضحت الرؤية، فجاءت الصورة أكثر وضوحا ويقينا، وأهمل محمد عبد الحليم عبد الله المفاهيم الانشطارية والتجزيئية، هذا هو التطور الذي أغفل ذكره يوسف الشاروني. تطور مهم انتقل به المؤلف من فساد في الرؤية والتصور إلى سلامة الرؤية والتصور.
هذا هو التطور المهم الذي أغفل ذكره نقاد أدب محمد عبد الحليم عبد الله، المنصف منهم وغير المنصف. إن محمد عبد الحليم عبد الله لم يحل حراما ولم يحرم حلالا، ولكنه في الوقت نفسه – دون قصد منه – تسربت إلى أعماله بعض المفاهيم «....» إلى أن جاءت رواية «الباحث عن الحقيقة» لتضع خطا فاصلا بين الحقائق والانطباعات.

الهوامش:

١- الباحث عن الحقيقة ص ٣٥.
٢- د. عماد الدين خليل. معجزة في الضفة الغربية ص ١٤. مؤسسة الرسالة ببيروت.
٣- الباحث عن الحقيقة ص ١٨.
٤- محمد عبد الحليم عبد الله: حياته وفنه القصصي رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة ١٩٧٢م.
٥- بتصرف من عبارة لمحمد عبد الحليم عبد الله. الباحث عن الحقيقة ص ٢٠.
٦- السابق، ص ٧، مكتبة مصر.
٧- السابق ص ٣٦.
٨- الوجه الآخر. محمد عبد الحليم عبد الله ص ٧٧. مكتبة مصر.
٩- المقدمة ص ٥٨١، حـ ٣، مكتبة نهضة مصر.
١٠- الباحث عن الحقيقة ص ٣٦.
١١- السابق، ص ٤٤.
١٢- السابق، ص ٤٣.
١٣- السابق ص ٧٨.
١٤- السابق، بتصرف ص ٨٨.
١٥- السابق ص ١٢٦.
١٦- السابق ص ١٣٤.
١٧- التوراة الضائعة. علي أحمد باكثير. الدار السعودية ص ٩٦.
١٨ – رواية شجرة اللبلاب، محمد عبد الحليم عبد الله، ص ١٣٨.
١٩- قصة لم تتم، محمد عبد الحليم عبد الله ص ١٥٣.
٢٠- روائي الدلتا. ج مونو. ص ٦٢.
٢١- الروائيون الثلاثة. يوسف الشاروني: ص ١١٧. الهيئة العامة للكتاب، مصر.